المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: صلح الحديبية
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
AL HUDAYBIYAH RECONCILIATION
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

صلح الحديبية:

في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، خرج الرسول ρ من المدينة ومعه حوالي ألف وأربعمائة من أصحابه متجها إلى مكة معتمرا لا يريد حربا، وساق معه سبعين بدنة أي سبعين جملا لتقديمها أضاحي عند المسجد الحرام، وكان الرسول ρ قد استنفر أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيأوا، ودخل رسول الله ρ بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء وخرج، حتى إذا كان الظهر صلى بذي الحليفة، ثم دعا بالبدن التي ساق فجللت ثم أشعرها في الشق الأيمن وأشعر أصحابه أيضا وهن موجهات إلى القبلة، وأحرم ولبى بأربع كلمات: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، وأحرم عامة المسلمين بإحرامه.

وكان عزم الرسول ρ على أداء العمرة عند المسجد الحرام منسجما مع تعظيم الإسلام للبيت وتوجيه قبلة المسلمين إليه منذ السنة الثانية للهجرة، وربما قدر الرسول ρ أن قيامه بالعمرة إلى مكة سيحمل قريشا على التخفيف من معارضتها له، لأن أحد الدوافع التي حملت زعماءها على مقاومة الدعوة هو خوفهم من أن تفقد مكة مكانتها الدينية بين العرب عند انتشار الإسلام، وها هو ذا الإسلام يجعل من مكة قبلة لجميع المسلمين في الصلاة والمكان الذي يحجون إليه من أجل عبادة الله والتقرب إليه.

وقد لعب هذا العامل دورا كبيرا في حمل قريش وحلفائها على التخفيف من معارضتهم لدخول الرسول ρ إلى مكة لأداء العمرة، غير أنه كان يقف في طريق تحقيق هذا الهدف عقبة كبيرة بالنسبة لقريش وهو خشيتها أن تقول العرب أن محمدا ρ قد دخل مكة عنوة بسبب ما بينه وبينهم من عداوة وحروب، لذا فقد رفض زعماء قريش في البداية السماح للرسول بدخول مكة واستعدوا لحربه.

إلا أن الرسول ρ حرص على تجنب القتال مع قومه ومحاولة كسبهم إلى جانبه، ليس لأنهم قومه وقوم كثير من أصحابه المهاجرين فقط، وإنما لما يعلمه من قدراتهم السياسية والاقتصادية والحربية، ولما يتمتعون به من احترام ومكانة عند العرب، لذا فقد غير مسار جيشه لتجنب الاصطدام بهم، حتى إذا وصل ثنية المرار قرب الحديبية بركت ناقته، فقال لأصحابه: حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

وقد قامت قريش بإرسال المبعوثين إلى الرسول ρ لتوضيح موقفها، فقد أرسلت مبعوثا عبر عن إصرار قريش على عدم السماح له بدخول مكة، غير أن الرسول ρ بين له حقيقة أهداف المسلمين من هذه الزيارة ثم عرض على قريش عقد هدنة لمدة محدودة من الزمن بقوله: فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها، ويخلون فيما بيننا وبين الناس.

ثم قام الرسول ρ من جانبه بإرسال عثمان بن عفان τ إلى مكة لتنشيط الحوار مع زعماء مكة وتوضيح موقف الرسول ρ بصورة دقيقة، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ρ ما أرسله به.

ويبدو أن الرسول ρ أراد أن يعزز مهمة عثمان السلمية، فأذن لعشرة من أصحابه المهاجرين بدخول مكة لزيارة أهليهم مع ما قد يرافق ذلك من حديث وتوضيح لوجهة نظر المسلمين، وكان من بينهم عبد الله بن سهيل بن عمرو، الذي ستعهد قريش لأبيه سهيل بن عمرو بمفاوضة المسلمين والتوصل معهم إلى صلح الحديبية.

غير أن عثمان بن عفان وبقية المسلمين الذين دخلوا مكة معه قد تأخروا في العودة، وبقوا في مكة ثلاثة أيام، وربما كان ذلك بسبب امتداد الحوار والمفاوضات بين عثمان وزعماء المشركين، فظن الرسول ρ أن قريشا قد حبستهم أو قتلتهم، وقد كان هنالك من الدلائل ما يشير إلى غلبة رأي المتشددين من زعماء مكة، ولذا فقد دعا الرسول ρ أصحابه لمبايعته تحت الشجرة بيعة الرضوان، فبايعهم على أن لا يفروا، وقال قائل: بايعهم على الموت، وذلك لأن الرسول ρ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم.

وبينما المسلمون يتأهبون ويستعدون لاحتمالات الحرب، بعثت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ρ، فلما رآه الرسول ρ مقبلا قال لأصحابه: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

وقد استهل سهيل بن عمرو المفاوضات بالاعتذار للرسول ρ عما بدر من بعض رجال قريش المتشددين، وقامت قريش بإرسال عثمان وبقية المسلمين من مكة، وقام الرسول ρ بالعفو عن أسرى المشركين والإفراج عنهم. وبدأت المفاوضات بين سهيل بن عمرو والرسول ρ ثم جرى الصلح بينهم فدعا الرسول ρ علي بن أبي طالب τ ليكتب بينهم، وشهد على هذا الاتفاق عدد من المسلمين واثنان من المشركين، وكتب الاتفاق بنسختين احتفظ الرسول ρ بواحدة، وسلمت الأخرى إلى سهيل بن عمرو.

ولم يقابل صلح الحديبية بالارتياح من عند عموم المسلمين، لأنه فوت عليهم فرصة الدخول إلى مكة لأداء العمرة في ذلك العام، وتضمن بعض الشروط التي بدت لهم غير متكافئة بأن يعيدوا إلى

قريش من أتاهم من غير إذن وليه في الوقت الذي لا تلتزم قريش بإعادة من أتى إليها من المسلمين، وكان من أبرز المعترضين على صلح الحديبية عمر بن الخطاب τ. ويبدو أن عمر بن الخطاب في كلامه يعبر عن موقف عموم المسلمين، فحين فرغ الرسول ρ من كتابة الصلح قال لأصحابه: قوموا فانحروا واحلقوا! فلم يجبه منهم رجل إلى ذلك، فقالها رسول الله ρ ثلاث مرات كل ذلك يأمرهم، فلم يفعل واحد منهم ذلك. فانصرف رسول الله ρ حتى دخل على أم سلمة زوجته مغضبا شديد الغضب. فأخبرها بالذي حصل من عصيان المسلمين لأمره، فاقترحت عليه أن يبادر إلى نحر هديه، حتى إذا رأوه يفعل ذلك أيقنوا أن الأمر قد أصبح نهائيا، فيقتدون به، فأخذ باقتراحها، فلما رآه المسلمون ينحر هديه سارعوا للاقتداء به، وبذلك أخذوا يستعدون للعودة إلى المدينة بعد أن تم صلح الحديبية.

قتال خيبر وحلفائها:

بعد أن نجح الرسول ρ في توقيع صلح الحديبية مع قريش، انفسح المجال أمامه لتصفية حسابات غزوة الأحزاب مع يهود خيبر الذين لجأ إليهم يهود بني النضير، وعلموا من هناك على تجميع مختلف القوى المعادية للإسلام لمحاربة الرسول ρ والقضاء على دولته.

ولم تكن مقاتلة أهل خيبر بالأمر السهل. ولم يكن يهود خيبر معزولين عن الوسط الذي يعيشون فيه، إذ كانوا يرتبطون بتحالفات مع يهود فدك ووادي القرى وتيماء، فضلا عن علاقاتهم المتينة مع قبيلة غطفان القوية التي سبق لها محاربة المسلمين في غزوة الأحزاب.

ويبدو أن يهود خيبر قد فكروا بتنظيم غزوة لمهاجمة المدينة بعد فشل غزوة الأحزاب ومعاقبة الرسول ρ ليهود بني قريظة، فقد اجتمع زعماء خيبر بعد أن وصلهم ما أصاب بني قريظة فقال أحد زعمائهم إن محمدا قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم فنازل بساحتكم، وصانع بكم ما صنع ببني قريظة، ولكنهم فشلوا في الاتفاق على رأي.

وقد حرص الرسول ρ ألا يأخذ معه في هذه الحملة إلا من كان راغبا في الجهاد متطلعا إلى الشهادة، وذلك لصعوبة المهمة التي كانت تنتظرهم في هذه الغزوة، لذا فقد اعتذر عن قبول انضمام الأعراب الذين تخلفوا عن الالتحاق به في غزوة الحديبية إلى هذه الحملة طمعا في المغنم. وبذلك فقد تألف جيش المسلمين الذي توجه إلى خيبر من الرجال الذين رافقوا الرسول ρ في غزوة الحديبية، وكان عددهم ألف أربعمائة مقاتل.

كان الرسول ρ حريصا على أن يباغت اليهود في الهجوم كي منعهم من الاستعداد لملاقاته، لذا فقد صحب معه دليلين ليرشداه إلى الطريق، وحاول أن يقطع المسافة الفاصلة بين المدينة وخيبر بسرعة قياسية، غير أن الرسول ρ اكتشف أن يهود المدينة كانوا قد بعثوا إلى أهل خيبر يحذرونهم، فقد ألقى

المسلمون القبض على أحد العيون من يهود خيبر قبل وصولهم إليها، وعند استجوابه عما لديه من معلومات أخبرهم أن القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون، لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من يهود. لقد وصلت قوات المسلمين ضواحي خيبر ليلا، ونزلت بواد يقال له الرجيع، وقد اختار الرسول ρ موضعا لقواته يفصل بين خيبر وغطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ρ.

وقد أعلن الرسول ρ بدأ هجوم قواته على خيب بمجرد أن اكتشف اليهود عند الصباح وجود هذه القوات أمام حصونهم، ثم قام بقيادة الهجوم بنفسه من أجل فتح الحصون المسماة بحصون نطاة، وكانت في موضع مرتفع بالنسبة لقوات المسلمين بجراح بالنبال التي صوبوها تجاههم، لذلك فقد قام الرسول ρ بتغيير موقع قواته بناء على اقتراح الحباب بن المنذر بمجرد أن سترهم الليل بظلامهم إلى موقع آخر.

وقد اتسم قتال المسلمين ضد حصون خيبر المنيعة بالشدة والاستبسال من جانب الطرفين، حتى تمكن المسلمون من احتلالها الواحد بعد الآخر، وقد استمر القتال مدة شهر تقريبا، اضطر اليهود في نهايتها إلى طلب الصلح، فوافق الرسول ρ على ذلك، بعد أن تكبدوا من الخسائر ثلاثة وتسعين قتيلا، أما خسائر المسلمين فقد اقتصرت على خمسة عشر شهيدا.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الثالث

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الثالث

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الثالث

الطبقات الكبرى: ابن سعد

السير والمغازي: ابن إسحاق

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح